مسرحية

غروب الأندلس

تأليف الشاعر الكبير عزيز أباظة

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

لا يستطيع أديب أن يعبر عن آلام الشعب التي تهز كيانه، وأن يصور آماله التي تهفو إليها نفوس أفراده إلا إذا كان يحس إحساسهم ويشعر شعورهم فيضطرب بين ضلوعه ما يختلج في حنايا صدورهم، ويعتمل في أطواء قلبه ما يجول في خبايا أفئدتهم، على أن يمنحه إلهام لا ينضب معينه، وفن مبدع تتحلب أفاويقه، ولسان مطواع يأخذ الألباب بسحر بيانه. فإذا رزق غزارة العقل وحنكة الدهر وتجارب الأيام جلى ما يريد أدباً ثميناً تستعذبه الفطر السليمة كما تستعذب الهيم سلسبيل الماء، وتطرب له الجماعة كما يطرب السامرون لرنين الوتر في هدأة الليل وخفقة السحر، وتصغي إليه كل أذن واعية كما يصغي الشوق إلى نغمات المطرب ورنة الغريد. وإن الكلمة البليغة لا تمل ترددها الأفواه، والبيت الرقيق لا تسأم من تكراره الأسماع

لقد سقت هذه المقدمة بمناسبة ما قدمه الشاعر الكبير الأستاذ عزيز أباظة للمسرح في تلك الأيام.. ألا وهو مسرحيته الشعرية « غروب الأندلس »

وإذا كان الأستاذ قد أتحف المسرح بمسرحيات قيس ولبنى، والناصر، والعباسة، وشجرة الدر، فإن مسرحية غروب الأندلس التي تعرض الآن في دار الأوبرا تعد أقوى ما ألف وأبدع ما نظم من حيث عمقها وبحثها وراء الأسباب التي تنهار من أجلها الشعوب، ومن حيث حكمها وما فيها من توجيهات يجب أن يأخذ بها من يريد للأمم حياة كريمة وصوناً من الأفول والزوال

ولعمري إن مأساة العرب في الأندلس لتذهب النفس عليها حسرات، وتسكب الدموع أسى وحزناً على ذلك المصير الذي أرداها فيه ما كان عليه زعماؤها وأمراؤها من تطاحن وتنازع وتفرق كلمة وانغماس في الملاذ والشهوات، والاستعانة بالأجنبي الطامع لقهر الأهل وذوي القربى

ولقد كان الأستاذ عزيز أباظة وهو يستوحي التاريخ يتمثل حال مصر في عهودها البائدة، عالماً بأسرارها مطلعاً على خباياها لما له من خبرة ومنزلة، فتغلي مراجل غضبه ويثور الغيظ في قلبه فيسكبه شعراً نلمس فيه حرارة التأثر مما رأى وبلاغة التأثير فيمن يسمع ويروي

ويذكر المؤلف في مقدمة المسرحية أنه نظمها قبل أن يبعث الله لمصر ٢٣ يوليو روحاً طاهراً وثاباً في جيشها الكريم فيتداركها من السقوط في هوة لا يدرك لها قرار. وما من شك أنه قد أضاف إليها شيئاً قل أو كثر بعد هذا البعث الذي نشر مصر على أيدي

ثم عاد إلى مصر فلم يلبث أن فقد بصره وأمضى الأيام الباقية من عمره منقبض النفس مطوياً حزيناً

وهو أول من أنشأ فن « رثاء الزوجة » في الأدب العربي الحديث، فلم يكن هذا اللون معروفاً أو مقبولاً من قبل حتى جاء محمود سامي البارودي فكتب قصيدته في رثاء زوجته، ثم جاء بعد ذلك عزيز أباظة وعبد الرحمن صدقي فمضيا في هذا الطريق

ويلتقي شكيب أرسلان وسامي البارودي في ذلك المنفى الذي تحمل النفس المهاجرة لأمد طويل، فقد قضى كل منهما صدر حياته في المنفى، فلما عادا لم يلبثا طويلاً

وإذا كان تاريخ أبطال الثورة العرابية لم يكتب حتى الآن لأن الظلم والغبن كان يحيط بتاريخ الأحرار من الرجال، فقد حق اليوم أن يكتب عن هؤلاء الرجال الذين كتبوا في مصر الحديثة صفحة الحرية، فما بالك وقد كتب محمود سامي البارودي صفحتين في الأدب والسياسة جديرتين بالخلود

أنور الجندي

أبنائها الأخيار

كم شقيت مصر فى عهودها البائدة وتعثرت فى خطاها إلى المجد فلم يقلها من عثرتها أولئك المهيمنون عليها ، ولم ينهضوها من كبوتها مخافة أن تحرمهم مما انغمسوا فيه من ترف السفهاء وشره الجبناء ؛ وأراد الله أن يعجل نهايتهم فجعل فى آذانهم وقرا فانكبوا يخضمون ويلغون لاتنغص عليهم لذاذاتهم هذه الأنات المكتومة والزفرات المحمومة . وزادهم الله ضلالا فجعل على أبصارهم غشاوة أعمتهم عن رؤية النذر والنظرات الصاعقة المتوعدة ، وأملى لهم فساق لهم عبيدا يعينونهم على اقتراف آثامهم واجتراح كبائرهم فكانت الأقلام الحرة تقصفها القوة الغاشمة ، والعزمات الأبية تكبلها القوانين الظالمة ، والأفواه الناطقة تقفلها الأيدى الملطخة بدماء الأبرياء. وياويل الأمة المغلوبة على أمرها المنهوكة القوى بسبب مايمتصه رؤساؤها من دماء أبنائها وهم يتطاحنون على السلطة ويتنافسون على بلوغ المناصب بكل الوسائل ، فيكيد بعضهم لبعض، ولا يرضى هذا أن يجيء الخير على يدى ذلك ، ويضيع أحدهم خيرا محققا فى سبيل ماسيكون فى بطنه يوم القيامة نارا تتلظى وفى الدنيا سبة وخزيا ، لكنه حريص على المنصب ولو كان يكتنفه الصغار وتحيط به الذلة والمسكنة. ومن حول الأمة أعداء طامعون فى تمزيقها حريصون على استعبادها عاملون على توسيع شقة الخلاف بين أفرادها الذين تفرقوا شيعا وُراء المتزعمين الضالين .

إن مسرحية غروب الأندلس ويصدقها التاريخ تعرض لكل هذا فى حبكة فنية وتسلسل متماسك وبيان أخاذ، ولن تقلب صفحة من المسرحية وأنت تقرأ ، ولن تمر لحظات وهى تمثل إلا رأيت وسمعت حكمة بليغة تقع على مافى نفسك موقع البلسم الناجع على الجراح الأليمة فلا تملك إلا أن تمنحها التقدير والإعجاب

ولا تسكت المسرحية عن التعرض للمعاهدات التى يعقدها القوى مع الضعيف ، وآثارها الوخيمة، وذلك التخريج والتأويل الذى يفسره صاحب القوة كما يشاء.

الأمر للأقوى يؤوله كما شاءت له الأطماع والأهداف

ولا يغفل عن الطرق الملتوية التى يسلكونها اكتسابا للوقت وهم يعدون حبال الآمال وخيوط الأمانى الواهية فيسوق على لسان الحبر وزير فرديناند وهو يخاطب إيزابلا

لا تقطعى الأمر حتى تصح منا العزيمه
والخير أن تستمر المفاوضات العقيمه
تظل تلهى فتوهى عرى الأمور الجسيمه

ولم يفت الشاعر أن يصور لنا هذه النفسية الوضيعة بطريقة مرحة وهى تداهن وترائى وتغير آراءها وتتلون ، زاعمة أن ذلك هو السياسة الرشيدة والله يعلم أنها الخسة والصغار. فالمسرحية تمثل لك ذلك فى شخصية أبى القاسم وزير العرب فى الأندلس أيام غروبها

حتى الزواج بالفرنج ومساوئ الضرائر قد وجد له نصيبا فى المسرحية وكان له فى الغروب تأثير

وبين هذا العبوس والظلام ، وفى وسط هذه المحن والآلام ، لا ينسى الشاعر فى مسرحيته ذلك الحب ورقته ، ورأى النساء فى الدلال الذى قد يبعد الحبيب وقد يجره مطواعا وبين الاستجابة التى قد تدنيه أو تنئيه

إن هذه المسرحية مسوقة لتكون عظة للشرق وعبرة ، ولا خير فيمن لايتعظ بماضيه، فإن الشرق فى الواقع لم يصب بالكوارث ولم تتحيفه الخطوب تحيف المقراض ، ولم يصبح نهبا مقسوما ولقمة سائغة لا تشجى عند ابتلاعها حلقوما ولا تغص حلقا إلا لتفرق كلمته . ويالیت أعداءه حسبوا أهله جميعا فهابوهم، بل عرفوا أنهم شتى وأن بأسهم بينهم شديد

وإذا كنت قد ذكرت لك طرفا مما فى المسرحية فإن مافاتنى ذكره كثير. ولم أرد أن أسوق لك نماذج عديدة من حكمها الغوالى ماذلك إلا لكى ترى وتسمع بنفسك ، وعلى كل شيخ وشاب أن يعمل على رؤية المسرحية فهى للشيوخ زاجر وواعظ يدعوهم إلى أن يتركوا خلافاتهم أويدفنوا أنفسهم حتى لايضروا أوطانهم . وهى للشبان حافز ودافع يدعوهم إلى أن يجعلوا أنفسهم للوطن جنة وعدة تقيه السوء وتحميه من كيد الكائدين ، ولا ينساقوا وراء الدجالين والمتزعمين الضالين . فإلى الأستاذ الكبير والشاعر المبدع عزيز أباظة أبعث تحية الإعجاب بهذه المسرحية ، راجيا أن يقدم للمسرح مثلها أخوات

عبد الستار أحمد فراج